(٥)

المؤمنون بالكواكب!

روى الأئمة البخاري ومسلم ومالك ـ وغيرهم ـ عن زيد ابن خالد الجهني أنه قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، على إِثْر سماء كانت من الليل، فلما انصرف (يعني سلَّم من الصلاة)، أقبل على الناس فقال: أتدرون ماذا قال ربكم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال (أي قال رسول الله: قال الله عز وجل): أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب»[1].

والمراد بقول الراوي «على إثر سماء»: في أعقاب مطر نزل عليهم في تلك الليلة، والعرب تقول السماء وتريد بها المطر النازل منها.

---

(١) في البخاري برقم ٨٤٦، وفي مسلم برقم ٧١، وفي الموطأ، الحديث رقم ٨٢٥، ط بيت الأفكار الدولية ٢٠٠٤، واللفظ هنا للبخاري.

وقد دفع رسول الله ﷺ إلى هذا البيان أن عبد الله بن أبيّ ـ رأس المنافقين ـ قال لما نزل ذلك المطر: «هذا نوء الخريف، مطرنا بالشّعرى»[1]. وكانت العرب تنسب المطر إلى الكواكب في ظهورها في السماء واختفائها منها.

فجاء حديث النبي ﷺ في هذه الحادثة ناقلاً عن رب العزة ـ تبارك اسمه ـ نفي هذا الاعتقاد الجاهلي، ورادّاً قول المنافق الذي يقرره، ومبيناً كفر من اعتقد أن للنوء (النجم الساقط أو الطالع) تأثيراً من أي نوع في نزول المطر أو عدم نزوله، وأن ذلك كله إنما يعود إلى رحمة الله بالناس وفضله عليهم.

فمن نسب الفضل في ذلك الخير الذي يصيب الناس ـ أي المطر ـ إلى الله تعالى وحده فهو مؤمن بالله، سبحانه، كافر بما دونه مما ينسب الناس إليه تأثيراً وفعلاً، من الكواكب وغيرها. ومن نسب ذلك المطر إلى الكوكب، الذي طلع في السماء أو اختفى منها، فهو كافر بالله تعالى لأنه ينكر انفراده ـ سبحانه ـ بالخلق والأمر والإنشاء.

---

(١) ابن حجر، فتح الباري، ط الرياض، المجلد ٢، ص ٥٢٤؛ محمد ابن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، جـ ٥، ص ٧٠.

وقد نبه القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ (فاطر:٣) . وبقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان:٣٤).

وفي بعض روايات الحديث أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال : «ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح طائفة منهم بها كافرين . يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا . فأما من آمن بي وحَمِدني على سقياي فذاك الذي آمن بي وكفر بالكوكب ، ومن قال مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك الذي كفر بي وآمن بالكوكب»[1] وفي رواية ثالثة صحيحة عن عبد الله بن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر ، قالوا : هذه رحمة الله ، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا»[2].

ولهذه الروايات الصحيحة فرَّق العلماء بين من اعتقد أن الكوكب ـ أي النوء ـ فاعل مدبر منشئ للمطر ، كما كان

---

(١) سنن النسائي، ط بيت الأفكار الدولية ١٩٩٩، الحديث رقم ١٥٢٥، وهو نفسه حديث زيد بن خالد الجهني، السالف ذكره، بسند مختلف ولفظ مختلف.

(٢) صحيح مسلم رقم ٧٣.

بعض أهل الجاهلية يزعم ، وبين من اعتقد أن المطر من فضل الله ورحمته ، ولكنه ذكر النوء باعتباره علامة له وميقاتاً، على النحو الذي جرت به العادة من معرفة أكثر الناس بمواقيت نزول المطر وعلامات قربه ، فكأن هذا قال : مطرنا في وقت كذا. فأما الأول ـ المعتقد أن للنوء تدبيراً وفعلاً ـ فهو عند العلماء لا شك في كفره. وأما الثاني الذي يعتبر النوء ميقاتاً وعلامة ـ فهذا ليس بكافر ولكنه مخطئ لاستعماله لفظاً يدور بين الكفر وغيره فيساء الظن بقائله ، ولأنه كلام من شعار الجاهلية ومن كان على شاكلة أهلها ـ من مثل المنافق الذي قال مطرنا بالشِّعرى ـ فالأولى ترك هذا اللفظ لأنه مكروه . قال الإمام النووي ، في شرح صحيح مسلم : «لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها». وقال ابن حجر في فتح الباري : «من اعتقد أن ذكر النوء من قبيل التجربة فليس بشرك» ونقل عن الشافعي : أن «من قال مطرنا بنوء كذا وهو يقصد في وقت كذا لا يكفر»[1].

ويجوز أن يكون تأويل الحديث أن الكفر المذكور فيه هو كفر النعمة الإلهية ـ وهذا في حق من لا يعتقد أن التأثير للكوكب ـ ويدل لصحة هذا التأويل الروايات التي فيها ذكر

---

(١) فتح الباري ، مجلد ٢ ، ص ٥٢٣ و ٥٢٤.

نعمة الله والكفر بها ، وذكر الشكر والكفر في مقابلته ، لأن هذه العبارات تدل على أن المراد هنا هو كفر النعمة لا كفر الملة . ولذلك كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول عند نزول المطر : « مطرنا بنوء الفتح » ، ثم يتلو قول الله تعالى : ﴿ **مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ** ﴾ (فاطر:٢) . قال الإمام أبو عمر بن عبد البر : « وهذا عندي نحو قول رسول الله ﷺ ، « مطرنا بفضل الله ورحمته »[١] .

فتأمل الفرق بين نسبة المطر إلى رحمة الله ونعمته وفضله ، ونسبته إلى شيء من خلقه ، تَعْلَم الفرق بين من أخلص دينه لله ومن شابته فيه شوائب الكفر أو النفاق .

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ط وزارة الأوقاف المغربية ١٩٨٥، جـ ١٦، ص ٢٨٦، وقد ذكر في هذا الموضع سؤال عمر بن الخطاب للعباس عم رسول الله رضي الله عنه عندما استسقى به: « يا عم رسول الله كم بقي من نوء الثريا... » قال ابن عبد البر فكأن عمر رحمه الله قد علم أن نوء الثريا وقت يرجى فيه المطر ويؤمل، فسأله عنه: « أخرج أم بقيت منه بقية ». وذكر أن مالك بن أنس كره أن يقول الرجل للغيم والسحابة: وما أخلقها للمطر، واستدل بذلك على احتياط العلماء ومنعهم الناس من الكلام بما فيه أدنى تعلق بما كان يقوله أهل الجاهلية .

وانظر: محمد زكريا الكاندهلوي ، أوجز المسالك إلى موطأ مالك ، طبعة مركز الشيخ أبي الحسن الندوي للبحوث والدراسات، الهند ، ٢٠٠٣ ، جـ ٤ ص١٦٠.

وتأمل حِلْمَ رسول الله ﷺ على ذلك المنافق الذي أنكر المعجزة في عودة الماء إلى البئر كثيراً وفيراً بعد أن أوشكت على الجفاف ، ونسب المطر إلى النوء والزمن لا إلى الله وحده ، تَعْلَم كم يبتعد عن الهدي النبوي أولئك الذين يتشددون في غير موضع الشدة ، ويكفرون المؤمنين بالريبة والشك والشبهة ، وينفرون الناس بحملهم قسراً على ما يرونه هم ، ولو كان عارياً عن الدليل خالياً عن الحكمة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله وحده !

* * *